دور الأسطول الفاطمي في ضم صقلية وجعلها قاعدة للجهاد ضد الدولة البيزنطية

أ. جـــمال عـلي أحمد الفقيـــــــه * - كلية التربية جادو _ جامعة نالوت

تاريخ الاستلام 3 / 3/2025م تاريخ القبول 3 / 7 /2025م

The Role of the Fatimid Fleet in Annexing Sicily and establishing it as a Base for Jihad against the Byzantine Empire

*Jamal A. Alfkih – Faculty of Education, University of Nalut

Abstract

The Fatimid era witnessed significant maritime expansion in the Mediterranean sea. The Fatimid fleet played a pivotal role in controlling strategic islands and sites to protect vital Coasts,

Including the islands of Sicily, which held military and political importance in confronting the Byzantine Empire. The Fatimid fleet was also established as a central naval force to protect the coasts and expand influence. Ports such as Mahdia in the east and Tripoli in the west were used as launching points, in was developed in terms of size organization, and modern naval capabilities at the time.

Key Words: Fatimid Fleet, Annexing Sicily, jihad, the Byzantine Empire.

الملخص :

شهد العصر الفاطمي توسعاً بحرياً كبيراً في البحر الأبيض المتوسط، حيث كان للأسطول الفاطمي دور محوري في السيطرة على الجزر والمواقع الاستراتيجية لحماية السواحل جية ومنها جزيرة صقلية، التي أصبحت قاعدة عسكرية وسياسية هامة في مواجهة الدولة البيزنطية، وكذلك أُسس الأسطول الفاطمي كقوة بحرية مركزية لحماية السواحل وتوسيع النفوذ، حيث استخدمت موانى مثل المهدية، وطرابلس الغرب كنقاط انطلاق، وتم تطوير الأسطول من حيث الحجم والتنظيم واستخدمت فيه تقنيات بحرية حديثة ومتقدمة في ذلك الوقت.

المقدمة :

لعب الأسطول الفاطمي دوراً محورياً في التوسع البحري للدولة الفاطمية خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، حيث أدرك الفاطميون مبكراً أهمية السيطرة على الطرق البحرية في البحر المتوسط لتحقيق أهدافهم السياسية والعسكرية

والدعوية. وتعد جزيرة صقلية من أبرز المواقع الاستراتيجية التي سعى الفاطميون إلى ضمها، نظرًا لموقعها الفاصل بين شمال أفريقيا وجنوب أوروبا، مما جعلها هدفًا رئيسيًا لتوسعهم.

لم يقتصر ضم صقلية إلى النفوذ الفاطمي على البعد العسكري فحسب، بل اتخذ طابعًا دينيًا دعويًا، حيث جعلها الفاطميون قاعدة للجهاد ضد الدولة البيزنطية، منافستهم الكبرى في حوض البحر المتوسط. وقد أصبح الأسطول الفاطمي أداة فعالة في دعم هذا المشروع، سواء عبر نقل القوات أو تنفيذ العمليات البحرية الهجومية يتناول هذا البحث الأبعاد المختلفة للدور الذي لعبه الأسطول الفاطمي في ضم صقلية، وتحويلها الى قاعدة عسكرية ودينية موجهة ضد النفوذ البيزنطي،

مشكلة البحث:

تدور اشكالية هذا البحث حول التساؤل التالي: ما مدى فاعلية الأسطول الفاطمي في تحقيق أهداف الدولة الفاطمية في البحر المتوسط، وتحديدًا في ضم جزيرة صقلية وتحويلها إلى قاعدة للجهاد ضد الدولة البيزنطية؟ ويندرج تحت هذه الاشكاليات مجموعة من الاسئلة الفرعية.

- ما العوامل التي ساعدت الفاطميين في بناء أسطول بحري قوي؟
- ما الاهمية الاستراتيجية لصقلية بالنسبة للدولة الفاطمية؟
- كيف استخدمت صقلية كقاعدة للجهاد البحري ضد الدولة البيزنطية؟

أهداف البحث:

1 - توضيح العوامل التي ساهمت في نشأة وتطور الأسطول الفاطمي.
2 - دراسة الأهمية الجغرافية والسياسية لجزيرة صقلية في الصراع بين الدولة الفاطمية والبيزنطية.
3 - تحليل دور الأسطول الفاطمي في ضم صقلية وتثبيت النفوذ الفاطمي فيها.
4 - بيان كيف استخدمت الدولة الفاطمية صقلية كقاعة للجهاد البحري ضد البيزنطيين.
5 - استعراض أبرز الحملات البحرية الفاطمية انطلاقا من صقلية وتأثيرها على موازين القوى في البحر المتوسط.

منهج بحث:

المنهج التاريخي التحليلي الذي يقوم على تتبع الاحداث من مصادرها وتحليلها لفهم الاحداث التاريخية السياسية والعسكرية والاقتصادية التي كانت وراء التواجد العربي الاسلامي في جزيرة صقلية.

فضلا عن استخدام المنهج الوصفي لتوصيف العلاقات البيزنطية والأوربية مع الخلافة الفاطمية في صقلية ومقر الخلافة الفاطمية بتونس ثم مصر.

الظروف التي ساعدت الفاطميين على امتلاك وتطوير الأسطول البحري:

لقد ورث الفاطميون أسطولاً بحرياً قويا من الأغالبة بعد سيطرتهم على حاضرتهم في تونس، وتحول صقلية من حكم الأغالبة إلى الدولة الفاطمية، مع وجود دار لصناعة السفن في المهدية، وكذلك الظروف التي فرضت عليهم الاهتمام بالأسطول البحري وتطويره، لحماية الدولة والجزر التابعة لها من الأخطار الخارجية كالبيزنطيين، والأمويين في الأندلس، وحماية السفن التجارية بين شرق وغرب البحر المتوسط، ومن تلك الظروف التي ساهمت في تطوير الأسطول الفاطمي حتى أصبح من أقوى الأساطيل في البحر المتوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجري من أبرز هذه العوامل:

1- **الموقع الجغرافـــــــــي** الاستراتيجي، حيث تتمركز الدولة الفاطمية في مناطق ساحلية مهمة مثل المهدية وطرابلس الغرب وصقلية، مما وفر لهم وجهات بحرية حيوية، سهلت لهم بناء الموانئ البحرية وتسيير الأساطيل، وحماية السفن التجارية التي كانت تنقل البضائع بين مناطق شرق البحر المتوسط وغربه وكذلك بين أوربا دول الشمال الأفريقي(1).

2- توفر الخبرات البحرية المحلية التي ساهمت بشكل كبير في تطوير هذا الأسطول من خلال المهارات البحرية لسكان الشمال الافريقي والصقليين المسلمين، الذين كان لهم باع طويل في الملاحة وبناء السفن.

3- التنظيم الإداري والعسكري لقد اعتمد الفاطميون على إدارة محكمة للأسطول، حيت شملت تعيين قادة متخصصين مع توفر ترسانة بحرية لصناعة السفن فضلاً عن برامج تدريب ممتازة للجنود والبحارة.

4- الدعم الاقتصادي فقد أنشأت الدولة الفاطمية مؤسسات مالية قوية، فكان للأسواق والضرائب ومداخيل التجارة دور في تمويل بناء السفن وصيانة الأسطول، وتوفير الرواتب للبحارة والمقاتلين.

5- ضعف المنافسين في بعض الفترات حيت شهد الأسطول البيزنطي تراجعا نسبيا في الأداء وكذلك انشغاله بالصراعات الداخلية، مما منح الفاطميين فرصة لتعزيز وجودهم البحري وتحديت اسطولهم ومقاتليهم من حيت التدريب والتسليح فضلا عن اتاحة الفرصة للفاطميين في نشر مذهبهم الديني الشيعي في المناطق التي تحت سيطرتهم(2).

اهتمامات الخلفاء الفاطميين بالأسطول البحري لمواجهة الأخطار الخارجية:

بعدما استقرت أمور **عبيد الله المهدي** بأفريقيا، وترسخت أركان دولته الشيعية الجديدة، اتجهت أنظاره إلي الدولة الأغلبية ومـــأ حولها، وكان من ضمن أملاك الأغالبة جزيرة صقلية.

فقد وعدً أبو عبدالله الشيعي قبل وصول الخليفة عبيد الله المهدي إلي الحكم في القيروان، أهالي صقلية بالأمان والاستقرار، وعندما وصل هذا الخبر إلي الجزيرة وشاع بين الأهالي، ثاروا على الوالي الأغلبي، وجعلوا مكانة علي بن أبي الفوارس في سنة (296هـ 907م) (3).

وذكر أبن الأثير وكذلك أبن خلدون أنه في سنة (300هـ 911م) ثأروا أهالي صقلية على عاملها علي بن عمرو (4) بينما ذكر أبن عذاري أن أهالي صقلية ثاروا على العاملين على الجزيرة الحسن وعلي أبني أحمد بن أبي خنزير، وطردوهما، وقاموا بنهب قصورهما، ثم أراد أهالي صقلية تقديم أحمد بن زياد الله بن قرهب، فأمتنع عليهم، وهرب منهم، ولكـــن بإلحاح الأهالي تولى أمرهم بعدما وعدوه بعدم خذلانه.

تم كتب إلي الخليفة العباسي المقتدر، بـأن يكون داعيا بأمره في جزيرة صقلية، وسر المقتدر بذلك، وأرسل إلية بأولوية سود، وخلع سود، وطوق ذهب، فسر بها أبن قرهب، وأظهر الحزم في أمره (5).

وفي سنة 301 هـ \ 913م هاجم أبن قرهب، الأسطول الفاطمي في مرسي لمطة وأحرق كل السفن الفاطمية الموجودة بالمرسى، وقتل قائده الحسن بن أحمد بن أبي خنزير ذبحا بيده وقطع يديه، ورجليه (6) .

وقد حاول عبيد الله المهدي إنقاد الأسطول، إلا أنه لم يتمكن من ذلك وهزم جيشه وغنم أبن قرهب الغنائم من الجيش الفاطمي، ورجع إلى صقلية. (7)

وفي سنه 303 هـ \915م قامت ثورة أخري في الجزيرة المراد منها هذه المرة الإطاحة بابن قرهب، وجمعوا رأيهم علي خلعه ، فداراهم أبن قرهب، وذكرهم بما وعدوه إياه أثناء تعيينه حاكما عليهم، فلم يقبل منهم أحد بأمره، وكاتبوا عبيد الله بأمره، وكادت بسببه تكون فتنه بالجزيرة، لوجود طائفة مناصرة له، وقد حاول أبن قرهب الهرب إلي الاندلس (8)، وأخذ في شحن مراكبه في البحر تأهبا للهرب، ولكن أهل الجزيرة أحالوا بينه وبين ما أراد، ونهبوا ما كان معه من متاع وأسروا أبن قرهب، وأبنه وقاضيه المعروف بابن الخامي، وقيدوهم جميعا، وأرسلوهم إلي عبيد الله المهدي

بسوسة، وكتب أهالي صقلية إلي المهدي بأن يوجه لهم عاملاً وقاضياً ، واشترطوا عليه شروطا أغضبت المهدي (9) .

وذكر أبن عذاري، عن وصول أبن قرهب وأبنه وقاضية، إلي سوسة سنة 304هـ \916م مصفدين بالحديد، وكان عبيد الله المهدي بها، فقال لابن قرهب " ما حملك علي الخلاف علينا وجحد حقنا " فقال له: " أهالي صقلية ولوني، وأنا كاره وخلعوني وأنا كاره " ثم أمر بنقلهم إلي رقاده وضربهم بالسياط، وقطعت أيديهم وأرجلهم على قبر حسن بن أبي خنزير، وصلبوا بباب سالم برقاده (10).

وبسبب ما اشترطوه على المهدي أرسل إلى صقلية الأساطيل، والجيوش بقيادة أبي سعيد الضيف. فحاصرها شهورا وسبي وغنم منها الكثير، ثم أرسل عبيد الله المهدي إمدادات أخري إلي أبي سعيد، وعندما شاهد أهالي صقليه هذه الأساطيل، ولاحظوا الجد في دخول الجزيرة، وطلبوا منه الأمان، على أن يسلموا له من كان سبب في هذا الخروج، فأمنهم وهدم سور المدينة، وأخذ سلاحهم ورقيقهم، وفرض عليهم مغارم وبعث بمن كانوا سبباً في المشاكل إلي عبيد الله المهدي، وولي على الجزيرة سالم بن أبي راشد، وأبقي معه جماعه من كتامه، ورجع إلي القيروان (11).

الغزوات الجهادية التي انطلقت من صقلية:

وفي سنة 313هـ \925 م قاد **أبو أحمد جعفر بن عبيد الحاجب** حملة جهادية في سبيل الله في جنوب إيطاليا منطلقا من صقلية، فأفتتح مواضيع كثيرة منها مدينة وارى إذ غنم وسبي، وقتل أعدادا كبيرة، وأسر بها بطريقاً صالحه عن نفسه ومدينته بخمسة ألاف مثقال، وانصرف عنها (12).

ونقل الغنائم إلى المهدية، وسلمها إلي عبيد الله المهدي، أدخل عليه المغانم النفيسة ووضع بين يديه جواهر وديباج وسبي وأموال. وقال له: " يا مولاي ما رأيت كاليوم منظرا "، فقال له عبيد الله: " هذا من الغنائم التي أصيبت بواري " فقال له الرجل:" إن من أدي هذا لأمين " وأراد المهدي أن يثني بذلك على جعفر الحاجب فقال: " والله ما أعطاني مـــن الجمل الا أذنيه " (13) .

وفي سنة 315 هـــ/ 927م خرج صابر الفتي الصقلبي إلي صقلية، جهاداً في بلاد الروم بجنوب إيطاليا في أربعة وأربعين مركبا فقد أصاب في هذه الغزوة كثيرا من الغنائم (14).

وفي العام التالي غزا صابر الفتي جنوب إيطاليا، في ثلاثين مركبا، وكان برفقته

سالم راشد الكناني، ففتح طارنت عنوة، تم حاصر أدرنت، وخرب دورها ومبانيها وذكر أبن عذاري أنه أفتتح موضعاً يعرف بالغيران وقلعة الحسب، تم زحف إلي سلير (سلرتوا)، فصالح أهلها على مال، وثياب [15].

وفي سنة 317هـ/929م غزا صابر غزوته الثالثة حيث التقي في البحر بسبعة مراكب للروم بقيادة السردغوس، وصابر في أربعة مراكب وهزم سردغوس، وفتح مدينة ترمولة (Termoli)، وغنم منها غنائم كثيرة، ورجع إلي المهدية [16]

والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما موقف المدن الإيطالية الجنوبية من هذا الضغط المتواصل من قبل البحرية الفاطمية، من قواعدها في صقلية وأفريقية؟ .

ويمكن تلخيص مواقف المدن الإيطالية، في نقطتين مختلفتين هما:

الموقف الأول: مدن إيطالية رأت من الأفضل لها الخضوع للمسلمين، ودفع الجزية لتأمين الأهالي ومدنها من السلب والنهب والسبي، كمدينة سالرنو، ونابولي.

الموقف الثاني: هو عودة ظهور القوة البحرية البيزنطية في البحر التيراني، لمواجهة الغزو الفاطمي، وقد ردُ الفاطميون سريعا علي هذا الموقف، فارسل القائم بالله في سنة 323هـ \ 934م أسطولا كبيرا بقيادة، يعقوب بن أسحاق لدعم المدن الخاضعة للفاطميين، وأن يهاجم مدينة جنوة ويفتتحها، كما هاجم سردانية ثم قرشقة، ودمُر السفن الراسية بموانيها والسفن المدافعة عنها [17] .

ثم توقف جهاد الفاطميين فترة من الزمن من 323هـ إلي سنه 337 هـ وذلك بسبب ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي، المعروف بصاحب الحمار، وقد أستمرت هذه الثورة أربع عشر سنة، بحيث شغلت عصر القائم بالله كله، وسنتين من خلافة أبنه أبي العباس إسماعيل المنصور، سخرت خلال هذه الفترة الأساطيل في مقاومة ثورة صاحب الحمار في سوسة واسترجعها من الثوار [18].

وما أن انتهت ثورة صاحب الحمار، وتم قتله حتى عادت البحرية الفاطمية إلي نشاطها الجهادي في البحر المتوسط وأخذت في مهاجمة جنوب إيطاليا والجزر البيزنطية، وفي هذه الاثناء تولي أمر جزيرة صقلية، الحسين بن علي، بأمر من المنصور الفاطمي، وذلك بسبب ثورة أهالي بلرم 335هـ \ 946م [19].

وذكر أبن خلدون أنه ركب البحر إلي مأزر mazar) ، وهناك حضر إليه بعض من أهالي كتامة، يعتذرون عن الأهالي، لأنهم كانوا يخشون من بني الطير، ثم التقى الحسن بن علي ببني الطير، وقد حاول أحد زعمائهم إثارة الفتنة، بأن دس إسماعيل

بعض غلمانه الأمر الذي دفع الغلمان إلي الاستغاثة بالحسن بن علي الكلبي من أحد عبيده أنه أكره امرأته على الفاحشة، وكان يعتقد أن الحسن لا يعاقب مملوكة، وفطن الحسن لذلك ودعا الرجل واستحلفه على دعواه، وقتل عبده ، فسر الناس بذلك، وانحازوا إلي جانبه، وخشي الروم هذه البادرة فدفعوا إليه جزية ثلاث سنوات [20].

وقد حاول الروم وضع حد للنشاط البحري الفاطمي، فأرسل إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع ، أسطولا ضخما بقيادة أحد بطارقته، فوحد قواته مع السردغوس، من أجل محاربة الحسن بن علي في صقلية، أستلم الحسن إمدادات كبيرة من المنصورة تقدر بحوالي سبعة الأف فارس، وثلاثة وخمسمائة رجل، وسار بـــرًا وبحرًا إلى قلورية (Calabria)، وضرب عليها الحصار ثم صالح أهلها على مال.

ثم زحف إلي الروم ففروا دون قتال، ونزل على قلعة قيشانة فحاصروها مدة شهر، وصالح أهلها على مال ورجع بالأسطول إلي مسينا (messina) فقضى بها فصل الشتاء [21] ثم أمرُه المنصور بالرجوع إلي قلورية، فعبر خراجة والتقي بقوات الروم والسودغوس فهزمهم، وغنم منهم غنائم كثيرة، وكان ذلك يوم عرفة سنة 340هـ\951م [22]، ثم حاصر خراجة حتي هادنه ملك الروم قسطنطين .

ثم عاد إلي ريو (Reggio) فبني بها مسجدا وسط المدينة، واشترط على الروم أن لا يتعرضوا له.

وبعد وفاة المنصور، استخلف المعز على صقلية **أحمد بن الحسين**، وأمره بفتح القلاع التي بقيت للروم بصقلية ففتح طرمين (Taormina) كما يسميها أبن خلدون، سنه 351هـ \ 962م، وأمر المعز بتسميتها المعزية [23]، ثم حاصر رمطة، التي استنجدت بالبيزنطيين فأرسلوا لها من القسطنطينية أربعين ألف رجل، كما مد المعز، أحمد بن الحسن بالرجال والأموال مع أبيه الحسن، والتقى الجيشان في رمطة، واستبسل المسلمون في القتال وعقروا فرس قائدهم منويل فسقط من على فرسه، وقتل عدد من البطارقة الذين كانوا معه، وانهزم الروم هزيمة كبري، وغنموا وأسروا وسبوا الكثير [24].

ثم فتحوا رمطة عنوة وغنموا ما فيها، وهرب بقايا الروم من صقلية في مراكب الأسطول البيزنطي، فتبعهم الأمير أحمد بن الحسن في المراكب وأحرقوا أغلب مراكبهم وقتل الكثير منهم، وتعرف هذه الموقعة بموقعة المجاز[25]، وقد وقعت هذه المعركة سنة 354هـــ \ 965م أسر فيها ألف من عظمائهم، ومائة بطريق ونقلت

الغنائم إلي بليرم عاصمة صقلية [26]

استغل المسلمون هذا الانتصار لصالحهم فهاجموا المدن الإيطالية، فقد غنموا منها الكثير، وهو ما كان يسعي إليه المعز لدين الله الفاطمي، بسبب استعداداته الضخمة التي كان يحشدها لغزو مصر، فقد أضطر البيزنطيون إلي طلب الصلح، فتم عقد هذا الصلح سنة 354هـ \ 965م نظير جزية يدفعها أهل قلورية للمعز كل سنة عن طريق عاملة في صقلية. وفي سنة 358هـ \ 968م أرسل الإمبراطور البيزنطي إلى المعز هدايا من بينها أنية من الذهب، والفضة مرصعة بالجواهر، والديباج والحرير وغير ذلك من نفائس الدولة البيزنطية، كما أرسل كتاباً إلى المعز يطلب منه وقف الحرب بينهما، ويسأله الموادعة وأرسل عدداً كبيراً من أسري المسلمين في المشرق وطلب منه زيادة مدة الهدنة. فرفض المعز أن يطيلها حتى تنقضي مدتها [27]

لقد أدرك الإمبراطور فوكاس إمبراطور بيزنطة، بعد موقعة المجاز، بأنه لا يستطيع كسب أي انتصار في صقلية وقلورية، في ظل الصراع مع المشرق الإسلامي. فأستمر رأيه على عقد هدنة مع الفاطميين، وسحب قواته البحرية والبرية من ميدان الصراع على سيادة صقلية وجنوب إيطاليا، ووسط البحر المتوسط مؤقتا [28]

وبهذا أصبحت صقلية وقلورية، وأيوليا تحت سيطرة المسلمين، ويعد هذا أعظم نصر حققه الفاطميون في البحر المتوسط في ميادين الجهاد في سبيل حماية الإسلام والمسلمين.

وفي ولاية أبي القاسم علي بن الحسن الكلبي، وقع تغير في الموقف البيزنطي من صقلية والمسلمين فيها، فقد عادوا إلى التدخل في شؤون صقلية الداخلية وإثارة القلاقل، وذلك بالتحالف بين إمبراطور بيزنطة يوحنا الشميشيق، وبين أوتوا لسوابي إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، على حرب المسلمين في إيطاليا وصقلية [29]

وقد تنبه أبوالقاسم لهذا الخطر فقام بتحصين بلاده ، وإعداد جيوشه لمواجهة هذا التحالف المسيحي.

وبالفعل فقد حدث ما كان متوقعا ففي سنة (371هـ/981م) قاد بلدوين القائد الجرماني حملة عسكرية، برية، وبحرية، كبيرة فهاجمت المسلمين في قلورية، ثم حاصر مدينة رمطة على الساحل الشرقي لصقلية، وقد أسرع أبو القاسم لصد هذا الهجوم، إلا أنه وجدهم في مكان غير مناسب للمعركة فأنسحب وتبعه بلدوين، وقتل أبو القاسم في هذه المعركة ، ولكن المسلمين ثبتوا وصبروا، وهزموا جيوش الروم والجرمان، وقتل منهم في المعركة أعدادا كبيرة، حتى إن بلدوين لم ينج إلا في عدد

قليل من أصحابه ومتاعه، فركب وزوجته البحر وعاد إلى روما .[30] ، بينما ذكر أبن خلدون أن بلدوين ملك الفرنج هو من قام لما سبق ذكرة ويقول:" وقاتلوا الفرنج فهزموهم أقبح هزيمة، ونجا بلدوين إلى خيامه براسة، وركب البحر إلى رومة ". [31]، وتولي أمر المسلمين بعد أبي القاسم أبنه جابر فجمع المسلمين ورجع إلى بلرم.

تعتبر فترة حكم أبي القاسم بن علي بن أبي الحسن الكلبي، من أحسن سنوات الحكم الإسلامي في صقلية، وأكثرها انتصارات (359-370 هـ / 970 -981م) وقد أجمع المؤرخون علي امتداحه ووصفة بالشهامة والعدل [32] ، وقد خلفه أبنه جابر فحكم ثلاثة سنوات من ذي القعدة (370هـ إلى سنة 373 هـ / أبريل 980 -983)، ثم خلفة أبن أخيه جعفر بن محمد بن أبي القاسم علي (373-375 هـ / 983 -985 م) ثم خلفه أخوه عبدالله فأتبع سيرة أخيه إلى أن توفي وتولي أمر الجزيرة في سنه 379 هـ 989م أبو الفتوح يوسف بن عبدالله بن محمد بن أحمد بن الحسن الكلبي الملقب بثقة الدولة، فكان حكمه ثابتا عادلا مستقرا، فكثر توافد الناس على صقلية وانتشر الإسلام فيها، وازدهرت في أيامه بلرم، ومازر[33] وقد أعتزل الحكم ، بسبب أصابته بالفالج، حيث تعطل نصفه الأيسر، فخلفة أبنه جعفر بن يوسف الملقب بتاج الدولة، وذكره أبن خلدون فقال : " فضبط الأمور، وقام بأحسن قيام " [34]

أسباب وسقوط صقلية في يد النورمان.

لقد ثار أحمد بن يوسف الملقب بالأكحل على أخيه جعفر بن يوسف الملقب بتاج الدولة، سنة 405هـ / 1014م وبولايته بدأ الشقاق والفوضى يدب في أنحاء الجزيرة إلى أن انتهت بزوال أمر المسلمين من صقلية[35] وتلقب بتأييد الدولة، فقد كان رجلا أنانيا طائشًا لم يحسن تسيير الأمور، فاختلف مع الفاطميين والصقليين، وثار عليه أهالي الجزيرة وأضطر إلى مغادرتها وخلفه أخوه علي بن يوسف، فانتمي للمعز بن تميم الزيري.

وفي سنة 410 هـ / 1019م رجع أحمد الأكحل إلى الجزيرة، فاشتدت الثورة في صقلية، وتقاسمها قواد محليون، فأصبحت في حالة تفكك واضطراب أشبه بحالة ملوك الطوائف في الأندلس [36]

وأثناء الفترة الثانية لحكم أحمد الأكحل بدأ النورمان، في غزو الجزيرة سنة (416هـ / 1025)، بعد أن تم القضاء على أخر معاقل الإسلام في جنوب إيطاليا، وفي سنة (427 هـ / 1035م) أصبح النورمان يتقدمون في صقلية بقيادة روبرت

جسكار وأخيه روجر الأول أبن تانكرد دي (37) .

وبعد مقتل أحمد الأكحل سنة (927 هـ / 1035 م) ولى أهل صقلية على أنفسهم يوسف أخا أحمد الأكحل الملقب بصمصام الدولة وفي عهده سادت الفوضى، وثار عليه محمد بن التمنة، فوقع شقاق بين أنصاره وأهل الجزيرة، كما أيد بعضهم الحواس ، فوقعت حروب بينهم ، وفي أثناء هذه الفوضى، أستولي روبرت جسكار على مسينا سنة 461 هـ / 1068 م ثم تقدم نحو بلرم، وقد حاول تميم بن المعز الزيري وقف هذا التقدم فلم يستطع وانسحب من الجزيرة بعد أن أظهروا من ضروب البسالة والشجاعة والاقدام ما أذهل الأعداء فاستولى النورمان على بلرم بمعاونة أبن التمنة (الذي يلقب بالقاهر بالله) (38) .

كما حاول الحواس الثبات أمام النورمان فلم يستطع. وقد قال أبن خلدون في هذا الوضع:" وتملكها روجار كلها وانقطعت كلمة الإسلام منها " (39).

وقد قال أبن حمديس عندما تذكر جزيرة صقلية وبلدة سرقوسة في قصيدة طويلة نذكر منها بعض الأبيات:

لئن كان أعيا كلَّ طبٍّ عـلاجها ... فكم جُرب في السيف أعيا المداوسا
صقلية كادَ الزمان بـــلادها ... وكانت على أهل الزِّمان محـارسا
فكم أعين بالخوف أمست سواهراً ... وكانت بطيب الأمـن منهم نواعسا
وأضحت لهم سرقوسة دار منعة ... يـزورون بالديرين فيها النواوسا
مشوا في بلاد أهلها تحت أرضها ... ومـا مـارسوا منهم أبياً ممارسا
ولـو شققت تلك القبور لأنهضت ... إليهم مـن الأجـداث أسدًا عوابسا
ولكـن رأيتُ الغيل ان غاب ليثهُ ... تبخر فـي أرجائه الـذئب مائسا (40)

وهناك سؤال يطرح نفسه وهو ما سبب زوال دولة الإسلام من جزيرة صقلية بعد ما بقيت في أيديهم مدة قرنين ونصف القرن؟

وللإجابة عن هذا التساؤل يري الباحث تلخيصه في النقاط التالية:

1ـ لقد كان انتقال الدولة الفاطمية، من أفريقية إلى مصر، دور كبير في ضعف الجزيرة. وذلك بسبب تبعية صقلية إلى مصر بدلاً من تونس، وهذا حرمها من أقرب نصير لها في وقت الشدة.

2ـ ضعف بعض حكام الجزيرة أمثال أحمد الاكحل الملقب بتأييد الدولة، وأخيه يوسف الملقب بصمصام الدولة، اللذان كانا سبباً في اشتداد الثورة وكثرة الانشقاق في

عهدهما، وبدء الحروب الأهلية في الجزيرة بين الفرق المختلفة من أفارقة، وصقلية، وعرب، وغيرهم، بسبب التدخل البيزنطي في الشؤون الداخلية للجزيرة، نضرا لضعف السلطة الحاكمة فيها [41] .

3- انقسام صقلية إلى عدة دويلات، تحت حكم قادة محليين، مما أفقد الجزيرة عامل الوحدة، في مواجهة القوات الغازية، أو حتى في مواجهة الثورات الداخلية المدعومة من البيزنطيين [42].

4- لقد كان لعدم دعم الإمارات الإسلامية في جنوب إيطاليا، وحرمانها من دعم الأسطول الصقلي والأفريقي، سبب في سقوطها بيد القوات المتحالفة البيزنطية والنورمان، وفتح أمامهم الطريق لغزو صقلية، التي كانت تعاني من الثورات الداخلية والتنازع على السلطة [43].

5- كان العالم الإسلامي في ذلك الوقت منقسما إلى ثلاث خلافات إسلامية، فكان الأمويين في الأندلس، والخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في مصر، وكان لهذا السبب أكبر الأثر في عدم توحيد كلمة الإسلام، ونصرة المسلمين في جزر البحر المتوسط، فسقطت الواحدة تلوى الاخرى، كقريطش ومالطة، ثم صقلية، هذه الجزر التي تعتبر بمثابة درع واق للوطن العربي، من الغزوات والأخطار الخارجية، ومصدر للأخشاب الجيدة لصناعة السفن.

لقد لعبت جزيرة صقلية دوراً فاعلا في حماية السواحل الإسلامية في إفريقية، وسببت ضعفا كبيراً للأسطول البيزنطي، وحجمت دورة [44]، وبقيت مدة قرنين ونصف القرن من الزمن، في أيدي المسلمين قلعة صامدة تنطلق منها الحملات الإسلامية الأغلبية ثم بعدها الفاطمية، إلى جنوب إيطاليا وجنوب فرنسا، وصخرة تحطمت عليها أغلب الحملات البيزنطية والنورمان، والفرنج، فكان لها دور بارز ومتميز، وفقدانها خسارة كبيرة، أفقدت المسلمين الكثير من الميزات الإيجابية التي كانت توفرها صقلية للأسطول الإسلامي الحربي والتجاري، ذلك لموقعها بوسط البحر وحماية السواحل الإفريقية .

الميزات التي كانت توفرها جزيرة صقلية في البحر المتوسط للمسلمين.

1- موقع صقلية الممتاز في البحر المتوسط، حيث يراقبون من خلالها تحركات خصومهم في المشرق والمغرب على حد سواء

2- تعتبر صقلية قلعة عربية إسلامية تأوي الأساطيل الإسلامية، في أغلب الظروف، وتوفر لهم الدعم والمعلومات والإمدادات اللازمة، وذلك بحكم قربها من السواحل الإيطالية [45].

3- تعتبر جزيرة صقلية جبهة متقدمة للعرب والمسلمين، ضدّ البيزنطيين والقوي المسيحية الأوروبية، لما تقدمه من معونة عسكرية ومادية ومعنوية للجيوش العربية وذلك لأنه يحكمها العرب المسلمين وبها تواجد إسلامي كثيف، [46]. وقريبة من السواحل الأفريقية.

4- كانت صقلية بمثابة ميدان لتدريب البحارة المسلمين، مما أجبرتهم على امتلاك السفن الحربية لضمان حمايتها من الغزاة [47]، وكذلك لضمان بقائها تابعة للسلطة الفاطمية في إفريقي ومن بعد إلى مصر

5- إن بقاء صقلية تحت السيادة الإسلامية، وفر الحماية اللازمة للسفن التجارية الإسلامية، من الاساطيل البيزنطية، التي كانت تنقل البضائع من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب وبالعكس، بحيث أصبحت الدول الإسلامية في مصر والشام بمثابة الوسيط التجاري، بين أوروبا والهند، في نقل التوابل والعطور وغيرها من البضائع التجارية المتبادلة. [48].

الخاتمـــــــــة :

مثّل الأســـــطول الفاطمي ركيزة أساسية في المشروع السياسي والعسكري للدولة الفاطمية، ليس فقط لحماية حدودها، بل كوسيلة فعالة للتوسع وبسط النفوذ في البحر المتوسط. وقد ظهر ذلك بوضوح في ضم جزيرة صقلية، التي لم تكن مجرد موقع استراتيجي، بل تحولت إلى قاعدة متقدمة للجهاد البحري ضد الدولة البيزنطية العدو الأبرز للفاطميين في تلك الفترة.

أظهر البحث أن نجاح الفاطميين في استخدام الأسطول لم يكن صدفة، بل نتيجة تخطيط دقيق شمل بناء أسطول منظم، واستغلال الموقع الجغرافي لصقلية، والاستفادة من خبرات الملاحة لدى سكان المنطقة. كما أن الحملات العسكرية المنطلقة من صقلية بينت قدرة الدولة الفاطمية على خوض صراع طويل الامد مع قوة بحرية عريقة كالإمبراطورية البيزنطية.

وختاما، فإن تجربة الفاطميين في البحر المتوسط، وتحديدًا في صقلية، تعد نموذجا مبكرًا لاستراتيجية الدولة البحرية في التاريخ الاسلامي، وتدل على وعي عميق بأهمية السيطرة البحرية في صراعات النفوذ والدعوة والدفاع. وتبقى هذه المرحلة

شاهداً على تفاعل الدين، والسياسة، والجغرافيا في رسم معالم الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب البيزنطي.

الهوامـــــــــش :

1 ـ لويس: أرشيبالر، القوة البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص215.
2 ـ بروى. أدوار واخرون، تاريخ الحضارات العام في القرون الوسطى، ترجمة يوسف اسعد، مطبعة عويدات للنشر والطباعة، بيروت، 1992م، ط3، ص191.
3. محمد سهيل طقوس، المرجع السابق، 86: إحسان عباس، العرب في صقلية، دار المعارف بمصر، القاهرة ،1959، 40-41.
4.ابن الاثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980، ط3، ج6 / 142. ابن خلدون، العبر في ديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968، مج 4/ 79
5. ابن عذارى، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، تحقبق عبدالله انيس، دار الكتاب للنشر، بيروت، ج1 / 168، ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976، ج1 / 155،
6. أبن عذاري، المصدر السابق، ج1 / 171.
7. المصدر نفسه، ج1 / 171
8. المصدر نفسه، ج1 / 171
9. إحسان عباس، المرجع السابق، 42.
10.ـ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1 / 174.
11. أبن عداري، المصدر نفسه، ج1 / 174 ،175. إحسان عباس، المرجع السابق، 42، محمد سهيل، المرجع السابق، 88
12. إدريس عماد الدين، المصدر السابق، 3 / 214.
13. أبن عداري، المصدر السابق، ج 1 / 190.
14. المصدر نفسه، ج1 / 192. السيد عبدالعزبز سالم وأحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 138.
15. إبن الاثير المصدر السابق، ج6 / 182 حيث ذكر ابن الأثير هذه الحملة كانت في سنه 313 هـ
16. أبن عداري، المصدر السابق، ج 1 / 194.
17. أبن الوردي، تاريخ ابن الوردي، مكتبة الحيدرية، النجف، 1970، ج1 /371. إدريس عماد الدين، المصدر السابق، 262.
18 . أبن الاثير، المصدر السابق، ج 308/6. إحسان حقي، تونس العربية، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ص60.
19. أبن خلدون، المصدر السابق، ج4 / 445. ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج1 / 158. الوردي، المصدر السابق ج1/ 390. سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، دار الإفتاء والتمدن، تر. رياض رأفت، دار الافاق العربية، القاهرة، 2001، 499
20. العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 446/4، إحسان عباس المرجع السابق، 44-45.

21. أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، مكتبة المثني، القاهرة، (د.ت)، 104. السيد عبدالعزيز سالم وأحمد مختار العبادي، المرجع السابق، 140.
22. أبن خلدون، المصدر السابق، ج4 / 446.
23. أبن الأثير، المصدر السابق، ج 5/7
24. أبن الأثير، المصدر نفسه، ج7/ 11-12 ابن خلدون، المصدر نفسه، 447/4، أبن الوردي، المصدر السابق، ح1 / 391.
25. السيد عبد العزيز سالم واحمد مختار العبادي، المرجع السابق، 120
26. أبن خلدون، المصدر السابق، ج4 / 447.
27. القاضي النعمان، المجالس والمسايرات ، (تح) الحبيب الفقي وأخرون ، المطابع الرسمية للجمهورية التونسية ، تونس ، 1987 ، 542 .
28. حسبن مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته كم قبل الفتح العربي إلي بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، دار العصر الحديث، بيروت، 1992، مج 1 / 546.
29. السيد عبدالعزيز سالم واحمد مختار العبادي، المرجع السابق، 140 -141
30. أبن الاثير، المصدر السابق، ج109/67، حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارتة من قيل الفتح العربي إلي الاحتلال الفرنسي للجزائر، دار العصر الحديث، بيروت، 1992، مج 1 ج1 /547.
31.أبن خلدون، نفس المصدر، 448/4
32. حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته. 547.
33 أبن الوردي، المصدر السابق، 1/ 392.
34. أبن خلدون، المصدر السابق، 448/4.
35. حسين مؤنس، المغرب وحضارته، 548، إحسان عباس، المرجع السابق، 47.
36. حسين مؤنس، المرجع سابق، 548. أحسان عباس، المرجع نفسه، 48.
37. أبن الوردي، المصدر السابق، 392/1.
38. دائرة معارف الشعب، جمال الدين الرمادي، فتوح العرب في أوروبا، مطابع الشعب، 1959، 229/2.
39. ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، 450/4
40. ديوان ابن حمديس، (تص) إحساس عباس، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ص 275 -276
41. ابن خلدون، المصدر السابق، ج4 / 449-450.
42. دائرة معارف الشعب، جمال الدين الرمادي، فتوحات العرب في أوروبا، ج2 / 228 -229
43. أبن خلدون، المصدر نفسه، مج 440/4
44. أرشيبالد .ر. لويس ، المرجع السابق ، 215
45. أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، 76.
46. السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، المرجع السابق، 100.
47. المارتشالد ر.لويس، المرجع السابق، 241.
48. تاريخ الحضارة العام في القرون الوسطي، (تر) يوسف أسعد دانمر، مطبعة عويدات للنشر والطباعة بيروت، ط4، مج 3، 191.